كيف نحافظ على هويتنا ؟

سألنى سائل : كيف نحافظ على هويتنا ؟ وهو سؤال يجىء فى وقته، لأكثر من سبب من هذه الأسباب ، ما يدور فى وطننا من جَدَل حول الأصالة والمعاصرة ، ومنها اتجاه العالم نحو التواصل بشتى الوسائل التى أَلغت الزمن والحدود ، مما جعل الفرد ريشة فى مهب رياح من الآراء والمعتقدات والثقافات .

ونحن نُولَد فتنشأ معنا هويتنا ، وتأخذ فى النمو من خلال الأسرة والمدرسة والمجتمع والثقافة ، ولو تخيلنا أنه يمكن أن نقيم بيننا وبين العالم سدًّا لخلصت لنا تلك الهوية فى راحة بال ، ولجَرَى الزمن وخَلَّفَنَا وراءه أَثرًا من الآثار هوية منه ، فيها القليل مما يصلح لكل زمن ، والكثير مما تجاوزه الزمن .

ولذلك فإن السؤال الحق ليس هو : « كيف نحافظ على هويتنا ؟ » ولكنه هو : « كيف نُثرى هويتنا ببدائع الزمن بدون أن نفقد من هويتنا الأصلية ما يصلح لكل زمن ؟ وكيف ندمجه فى ذاتنا بحيث يَنتُج عن الزواج بين الاثنين كلٌّ مُوَحَّدٌ لا تناقض فيه ولا اضطراب ، بحيث يمكن أن نطلق عليه بحق اسم هويتنا الجديدة ؟ » . ولا عيب أن تكون لنا هوية جديدة فى النطاق المشار إليه ، بل لا عيب أن يكون لنا فى كل

عصر هوية تناسبه ، وما العيب إلاَّ أنْ نتخلف عن العصر فنصبح من ذكريات التاريخ التى لا يَهَبُ لها مكانًا إلا فى متاحفه .

وطريق ذلك أن نجعل من التفكير فريضة ، ومن الكسل معصية ، فمن الكَسَلِ أَنْ تبقى على عادة أو تقليد أو فكرة آنَ لها أن تتطور أو تتغير، ومن الكسل أنْ تضن بتفكيرك واختيارك ونقدك لما يعرض لك من آراء ونظريات وسلوكيات قد تجد فيها الخير كل الخير ، أو التقدم كل التقدم ، والحضارة الحقيقية ما هى إلاَّ استيعاب وأَخْذ واختيار وعطاء . ويتم ذلك فى حركة دائمة ، وفى شجاعة فائقة ، وفى لقاء إنسانى شامل، والويل كل الويل لمن يتوقف عن الحركة .

(١١ / ٢ / ١٩٩٢)

أرجو أن يتفرغ العرب فى أقرب وقت ممكن لتقرير مصيرهم فى الحياة بما تعنيه من رؤية حديثة فى الفكر والعمل ، يجب أن يعيشوا عصرهم كما يجدر بأمة ذات ماضٍ مجيد . . أُمَّة مصممة على أن يكون مستقبلها مثل ماضيها عزة وتقدمًا ، لذلك يجب أن تنجح أولاً فى تخطى همومنا الراهنة بعد تسويتها بما يضمن لنا التفرغ للقضايا الأهم ، القضايا المصيرية المستقبلية ، ويجب أن يتم ذلك سريعًا ، وبالدرجة التى تهم قومًا يؤرقهم التآخى ، ويشغلهم حقل التقدم والحضارة ، فلا يجوز أن تطول أو تتعقد المشكلة الليبية ، ولا أن يتأخر تاريخ استئناف العراق لمسيرة البناء ، ولا أن تظل مشكلات الحدود معلقة ومثيرة للفتن . قد يعد أناس حل تلك المشكلات هدفًا كبيرًا ، وإنجازًا ـ إذا تم ـ خطيرًا ، على حين أنه فى نظرى ليس إلاَّ تنقية المناخ العربى من الشوائب ، تمهيدًا للتعاون المخطط لخَلْق نهضة شاملة ، ولكن ما أبعاد تلك النهضة الشاملة ؟

هناك بُعْدٌ ثقافى يجب أن يبدأ بإحْدَاثِ ثورة فى التربية والتعليم ، يكون هدفها خلق مواطن يجمع بين قيمه الخالدة وبين التوجه العصرى فى العلم وتطبيقاته ، والتأهب للعمل فى الحياة المعاصرة بكل متطلباتها ، مع تربية العقول تربية حرة تنشد الأصالة والتحرر والاستقلال والإبداع .

وهناك بُعد اقتصادى لتحقيق التكامل بين البلاد العربية من المحيط إلى الخليج ، بهدف تحقيق ثورة زراعية ، وخلق قاعدة صناعية ، والتعايش مع العصر بروحه وأساليبه ، والتعاون مع العالم باعتبارنا أُمَّة كبيرة قادرة على العطاء مقابل ما تأخذ ، وأنه لا يُسْتَغْنَى عنها كعضو نافع فى الأسرة البشرية .

وعن طريق هذين البُعْدَيْنِ يتشكل نوع من الوحدة السياسية التى تُناسب البلاد ، بعيدًا عن أى حساسية ، أو ادِّعاء للزعامة ، أو إثارة للفُرقة والمنافسة .

إنَّ أَىَّ يوم مَرَّ بدون تحقيق جزئية من ذلك الحلم يجب أنْ يُعد مفقودًا من حياة العرب .

(٣٠ / ٤ / ١٩٩٢)

فى يوم الاثنين ٣ / ٨ اطلعتُ فى صُحفنا على عنوانَيْنِ هامين :

الأول : عن أحياء مصر الإسلامية وما تعانيه هياكلها وآثارها من أحوال مترديه ، وكيف تحولت إحدى بوابات مجدها التاريخية إلى مقلب قمامة .

والثانى : عن انعقاد مؤتمر ثقافى لبحث الثقافة العربية فى عالم الغد المتغير ، والاتفاق على ميثاق يلتزم به المثقفون ، هكذا اجتمع البكاء على الأطلال مع التطلع إلى المستقبل فى وقت واحد . وبالحق والصدق ، فإننى لم أَحْظَ من العنوانين إلاَّ بالكآبة .

لا أدرى كيف أدافع عن أحيائنا الأثرية ، فقد قيل فى ذلك كل ما يمكن أن يُقال . فضلاً عن ذلك فإنى ابنٌ من أبنائها ، نَعِمَ بملاعبها فى ربوعها الطيبة فى زمن كانت تكنس فيه فى النهار الواحد مرتين ، وتُرَشُّ مرتين ، وتنضح جوانبها بعبق الماضى المجيد ، ماذا يحدث لها اليوم ؟ ماذا أصابها فى العصر الذهبى للسياحة ؟ وهل تغنى فى الدفاع عنها لغة المال والاقتصاد ؟ أَو حسبنا حنين الذكريات ؟!

أما المؤتمر الثقافى فقد انعقد ، وأُلقيت كلمات طيبة كالعادة ، وأعلن الميثاق ، وانفضَّ السَّامِرُ ، وأُسْدِلَ الستار . أى ثقافة ؟ وأى عالم

متغير؟ . الثقافة هى الثقافة ، هى الإنتاج أولاً وأخيرًا ، والعالم لا يكف عن التغيير ، ولا الثقافة تكف . وأما الميثاق فهل كان ينتج المبدعون ويفكر المفكرون بدون ميثاق وإنْ لم يُعْلَن فى مؤتمر ؟ هل كانوا يَهِيمُونَ فى الضلالة حتى هَلَّ عليهم الميثاق بنوره ؟ وأى قوة تحمل مُبدعًا على الالتزام بغير ما يوحى إليه به ضميره ؟

أفهم أن يجتمع المثقفون لعرض مطالبهم ، وأما أكثر المطالب المعلقة فهى : إعادة النظر فى القوانين الخاصة بحرية الفكر ، وإزالة العقبات المالية والجمركية التى تُعرقل التبادل الثقافى ، وتشديد عقوبة التزوير ، والتبادل الثقافى من خلال المعارض والزيارات ، وإنشاء مؤسسة على مستوى الجامعة العربية للترجمة من وإلى اللغة العربية ، وتقوية ساعات البث الإذاعى والتليفزيونى فى مجال الثقافة ، وإنشاء لجنة دائمة من وزراء الثقافة والإعلام والتربية فى البلاد العربية لموالاة الثقافة بالرعاية والعناية .

وأعتقد أنه توجد مطالب ثقافية أكثر من ذلك ، وهى جديرة بالندوات والمؤتمرات حقًّا .

(١٧ / ٩ / ١٩٩٢)

الانتخابات الكويتية حَدَثٌ تاريخى كبير ، وهو يكتسب خطورته وأهميته لوقوعه فى المنطقة العربية ، وكأنه ثورة على تقاليدها السياسية . الحديث بكل بساطة أنه جرت انتخابات بين المعارضة وأنصار الحكومة ، ففازت المعارضة فوزاً ساحقًا ، وانهزمت الحكومة هزيمة ساحقة ، واعترف بهذه النتيجة ، وشُكِّلَتِ الوزارة الجديدة على أساسها ، بذلك بدأت الكويت مسيرتها الديمقراطية الجديدة بكل شجاعة وتفاعل مع العصر والعالم الجديد ، ولم تتردد فى الاعتراف بالواقع برغم غلبة التيار الإسلامى عليه ، مقررة أن تمضى إلى مصيرها من خلال واقعها ، وبدون خوف من متطلبات الحياة ، وقد ذكرنى ذلك بأول انتخابات لنا عام ١٩٢٤ ، والتى خاضها الشعب فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، وقبل أن يُوجد من بين بَنِيه مَنْ تسول له نفسه تزوير الآراء ، واختلاس الثقة الكاذبة ، وإقامة حُكم على أساس غير قانونى . . تذكرتُ ذلك ، وتذكرتُ كيف أن رئيس الوزراء الذى أجرى تلك الانتخابات قد سقط فيها أمام فرد من الشعب ، وتذكرت ـ والحسرة تملؤنى ـ أننا لم نظفر بعد ذلك بانتخابات حرة إلاَّ لحظات عابرة من حياتنا المملوءة بالطغيان .

وذلك الموقف الكويتى يوجب علينا أن نوجه الشكر والثناء إلى دولة الكويت على سلوكها الحضارى وسبقها إلى تلبية نداء العصر .

ونثنى بكل حرارة على شعب الكويت الذى هرعت أغلبيته الساحقة إلى صناديق الانتخاب معلنة بذلك عن إيجابيتها وانتمائها والتزامها بالواجب الوطنى ، كما نحيى للمُتَظاهِرات من نساء الكويت اللاتى طالبن بحقهن فى التصويت والترشيح . وبعد ، فإننا سنتابع حكومة الكويت ومجلسها النيابى بالثقة والاهتمام ، ونرجو لهما نجاحًا وتعاونًا مثمرًا فى خدمة الكويت والقضايا العربية ، فإن نجاح هذه التجربة يتطلع إليه جميع الأحرار فى العالم العربى .

(٢٢ / ١٠ / ١٩٩٢)

الحرب والشرعية الدولية

الضربة التأديبية الأخيرة للعراق تثير جملة من الأفكار المتضاربة ، ولم يكن الأمر كذلك حيال الحرب الأولى الخاصة بتحرير الكويت . فى الحرب الأولى انقسم العرب إلى فريقين ، فريق يدين الغزو ويؤيد قرار مجلس الأمن ، ويتطلع إلى مولد عالم جديد ، وفريق يؤيد القرار العراقى ويستنكر ويتهم قرار مجلس الأمن . اليوم لا يوجد عربىٌ مُسْتَقرٌّا فى موقفه من الأحداث ، حقًّا إنه ضد الاعتداء على الكويت ، وضد العبث بشروط الهدنة ، ولعله يقر الضربة التأديبية ، ولكن مع تحفظات وتساؤلات . فمجلس الأمن لا يحافظ على كرامة قراراته الدولية بقوة واحدة ، ولا بحزم واحد ، وقد استهانت بقراراته ثلاث دول فى وقت واحد تقريبًا ، فَعَامَلَ الضِّرْبَ وإسرائيل باللطف ، ولم يتجاوز معهما العتاب ، ولكنه مع العراق كان مثلاً من أمثلة الحَزم ، والعمل فى ناحية الحفاظ على الشرعية الدولية ، وفى الأخرى موقف يذكرنا بالعالم القديم وسياساته القائمة على المصالح والتآمر . لا نريد أن تتلاشى آمالنا فى انتظار العام الجديد . لا نريد أن يتبدد حلم الشرعية الدولية بعد أن أفعم ملايين القلوب بالتفاؤل .

وثمة اختبارات أمام الشرعية الدولية ، يتوقف بقاؤها على النجاح فى حلها ، هى :

١ ـ المُبْعَدُونَ الفلسطينيون .

٢ ـ البوسنة .

٣ ـ تطهير العالم من أسلحة الدمار الشامل بدون استثناء أو تهاون .

وعلى أى حال سندرك حقيقة نوايا مجلس الأمن ، سواء وافقناه عليها أم لم نوافقه .

أما اللغز الذى سيبقى مستعصيًا على الفهم فهو « صدام حسين » ، لقد حَارَ الناس فى فهم تصرفاته ، وذهب بهم الظن كل مذهب . والحق أن مرجع تلك الحيرة يقوم على فرض أنه حاكم وطن ، وأنه يحوز على الأقل الحد الأدنى من قُدرة الحاكم وخبرته . ولكنى لم أعد أؤمن بذلك ، فصدام حسين ومَنْ هم على شاكلته قد يملكون المهارة للاستيلاء على السلطة إذا ملكوا القوة اللازمة ، ويتربعون على كرسى السلطان بلا مؤهلات حقيقية تؤهلهم للعمل وحَمْل الأمانة ، من أجل ذلك تصدر منهم ألوان من السلوك غير المعقول الذى لا يصدر إلاَّ عن الحمقى والمجانين . ويحار الناس فى التفسير لأنهم يتصورون فيهم الحنكة والحكمة ، وما هى فى الحقيقة إلاَّ أفعال منحرفة تدفعها حسابات خاطئة ، تصدر عن عقلٍ أجوف ومستبد .

(١٩ / ١ / ١٩٩٣)

مصر والسودان

إنى من جيل اعْتَبَر مصر والسودان وطنًا واحِدًا ، فمصر هى السودان الشمالى ، والسودان هو مصر الجنوبية . وكلمتا مصر والسودان استقرتا فى وجدانى ككلمة أو كلمتين متكاملتين ، كما نقول الليل والنهار ، أو خطوط الطول والعرض . من أجل ذلك جاء الخلاف على الحدود صدمة واحدة قاسية ، ثم كانت شكوى السودان إلى مجلس الأمن أقسى وأفظع .

ولعل أول سؤال طرأ على ذهنى هو : « كيف لم تختم المفاوضات بين الشقيقتين بالتوفيق ؟ » . أما السؤال الثانى فهو : « إذا خان التوفيق الشقيقتين فأين الجامعة العربية ؟ » أليس المعقول أن تكون الجامعة أول من يحتكم إليها أعضاؤها ؟ . على الأستاذ أمين الجامعة أن يدرس تلك الحال بما عُرِفَ عنه من مقدرة وحُب للعرب والعروبة . نحن نأمل دائمًا أن يكون للجامعة وزن فى نظر العالمين ، ولكن لابد أن يكون لها أضعاف ذلك الوزن فى نظر أبنائها . ولعل ذلك يجعلنا نفكر من جديد فى إنشاء محكمة عدل عربية ليكون لها الرأى الفاصل فيما ينشب من خلاف بين دولتين عربيتين أو أكثر .

نحن اليوم نواجه عالمًا جديدًا ، ومن أتعس الفروض أن نواجهه كدول

منفصلة ، أو ـ وهو الأَدْهَى والأَمَرُّ ـ كدول متنازعة بسبب الحدود أو غيرها . وأعتقد أنَّ ما نتفق فيه من تعاون اقتصادى وثقافى وسياسى أهم وأكثر مما نختلف بشأنه ، فلماذا لا نعتمد على ما نتفق فيه ، ونؤجل الخلافات لتبادل الرأى بين الإخوة وللزمن ؟

وفى كلمة أخيرة : إنَّ التاريخ لن يغفر لأى مواطن ـ من مواطنى مصر والسودان ـ بوسعه أن يصلح بين الطرفين ويتهاون فى ذلك .

(٢٦ / ١ / ١٩٩٣)

عالم جديد يتشكل ساعة بعد أخرى ، وقد يُسفر فى الغد القريب عن تكتلات اقتصادية عملاقة ، كما يحدث بين الأمم الأوربية ، وكما يحدث بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك . وقد تنشأ تكتلات جديدة ، بل حتى الأمم التى تنزع اليوم نحو التحرر والانفصال قد ترى من الحكمة فى القريب العاجل أن تعود إلى تكتلاتها بأسلوب جديد ، أو تنضم إلى تكتل من التكتلات القائمة إذا ما وجدت ذلك محققًا لمصلحتها على وجه أفضل .

أعتقد أن ذلك لا يغيب عن الفكر العربى ، ولا يغيب عن الجامعة العربية . وثمة صورتان يمكن تخيلهما لحياة الأمم العربية :

الأولى ـ وهى الحلم ـ أن تترابط جميع الأوطان العربية فى تكامل اقتصادى كبير يجعل منها وحدة اقتصادية ذات شأن ، ويكون ذلك أساسًا لنهضة تعاونية فى الثقافة والبحث العلمى ، وإيذانًا بدخول العروبة العصر الحديث ، حاملة كافة مؤهلاته التى تقوم أساسًا على الاقتصاد والعلم ، بالإضافة إلى القيم السامية التى تستمدها من تراثها المجيد .

هذه هى الصورة التى يجب أن نعمل على تحقيقها دفاعًا عن وجودنا

وحياتنا وكرامتنا ، والتى يجب أن نزيل من سبيلها جميع المعوقات والسلبيات التى تؤخر تحققها أو تؤجله .

الثانية ـ أعنى الصورة الثانية ـ الواقع المؤسف الذى يقوم على التمزق والخلافات ومرارة الذكريات المؤلمة . إنها صورة شديدة الانفعال ، وانفعالاتها تدعو للخصومة والنفور والتمزق .

ومصيرنا سيتقرر نتيجة للصراع بين العقل وما ينادى به ، والانفعال وما يدعو إليه .

وقد يكون من الحكمة أن نبدأ التعاون والتكامل بين الأوطان التى لا يوجد تناقض بينها ، أو التى تستطيع أن تمحق تناقضاتها وتحل مشاكلها وتتناسى ذكرياتها المرة .

يجب أن نبدأ ولو بوطنين أو ثلاثة أو أربعة . إن نجاح التعاون بينها سيكون داعيًا للآخرين للانضمام والاقتناع بصوت العقل وحكمته .

(١٩ / ٣ / ١٩٩٣)

مراجعة شاملة

يندر أن تجد قلبًا مطمئنًا هذه الأيام . يندر أن تجد شخصًا راضيًا عن يومه ومؤملاً خيرًا فى غده ، وقد صدمنا الإرهاب ولا شك ، ولكنه ليس مشكلتنا الوحيدة . وهناك رغبة صادقة فى إعادة النظر فى كل شىء ، وهى ناشئة عن إحساس بأن أشياء كثيرة قد تجاوزها الزمن وأفرغها من أى مضمون . . نعم ليس الإرهاب بمشكلتنا الوحيدة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : مازال الخلاف قائمًا حول الإصلاح السياسى ، والإصلاح الاقتصادى ، ومازال كثيرون يفسرون تعثر الإصلاح الاقتصادى بنقص فى الجوانب السياسية .

هلى نستطيع أن نحرر الاقتصاد بأيدٍ تربت ونمت وأزهرت فى الشمولية؟ . ونطالب بالاستثمار وتشجيعه فى الوقت الذى ترتفع فيه الشكوى من عراقيل مازالت قائمة فى سبيل الاستثمار ، بالإضافة إلى أن دستورنا وُضِعَ لزمنٍ مَضَى ، أمَّا زماننا الحاضر فلا دستور له .

وعالمنا الخارجى لم يعد بالصفاء الذى كانه . . الوفاق العربى يحتاج إلى ترميم طويل أو إعادة بناء . وما حصل من توتر فى العلاقات بين مصر والسودان ، وبين مصر وإيران يحتاج إلى حكمة ثاقبة ومساعٍ حميدة.

نحن فى حاجة إلى إعادة نظر فى كل شىء : إلى قراءة الواقع قراءة صحيحة . . إلى مواجهة الحقائق بشجاعة . . إلى بناء سفينة تصلح لمواجهة أى طوفان .

وثمة بوادر تدعو للأمل ، فأقلام رصينة تحبذ التغيير ، وأخرى تتحدث عن ائتلاف ، وثالثة عن حوار ووساطة رشيدة . . هذه بشائر تسر ، نرجو لها التوفيق ، وأن تتسع لتشمل كل شىء ، وأن تفسح المجال أمام المخلصين من أبناء هذه الأمة ليبدءوا نهضة حقيقية تجمع بين أسْمَى المبادىء الخالدة ، وأحدث أساليب العصر .

(٢٩ / ٤ / ١٩٩٣)